انشطار الذات والبحث عن الهوية
في رواية قناع بلون السماء .لباسم الخندقجي

Fragmentation of the Self and the Search for Identity in the Novel A Mask the Color of the Sky By Baseem Al-khendakji

د. فوزية خميسي♥

المُعرّف الرّقميّ للمقال:017-001-028-0114/10.33705 DOI

تاريخ الإرسال: 13/03/ 2025 تاريخ القبــول: 11 / 07/ 2025 تاريخ النشر: 15/03/2026

ملخّص: يشكل موضوع الذات والهوية مادة دسمة للرواية المعاصرة، وهذا ما لمسناه جليا في الروايات العربية الحديثة خاصة تلك التي تعالج الأزمات السياسية والصراعات الانسانية كالأزمة الفلسطينية، هذه الأزمة التي طال أمدها، حيث ساهمت بشكل جلي في توجيه كثير من أقلام الروائيين العرب لنقل معاناة الشعب الفلسطيني الذي سعى ويسعى جاهدا إلى إثبات هويته وسط الصراعات والأزمات المتكررة في الأراضي المحتلة التي مزقت كيانه ووحدته وسيطرت على رقعته الجغرافية، مما جعل سؤال الهوية يبرز كقضية محورية أثرت بعمق على العمل الأدبي والفني خاصة الفلسطيني منه، فوجدناهم يستعرضون بأدواتهم الفنية بكل أشكالها رحلة البحث عن الهوية، لذا سنحاول في هذه الورقة البحثية عرض مختلف المواضع التي تناولت مسألة الانشطار الهوياتي والصراع الوجودي عند الفرد الفلسطيني من خلال رواية **قناع بلون السماء** للأسير الفلسطيني **باسم الخندقجي**، فجاء عنوان البحث كالاتي:

♥جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة، الجزائر.

البريد الإلكتروني : f.khemici@univ-dbkm.dz (المؤلّف المرسل).

انشطار الذات والبحث عن الهوية في رواية قناع بلون السماء لباسم الخندقجي.

كلمات مفتاحيّة: الوطن؛ الهوية؛ الذات؛ الانشطار؛ القناع.

Abstract: The topic of self and identity constitutes rich material for the contemporary novel, and this is what we have clearly seen in modern novels, especially those related to the Palestinian crisis. This has significantly contributed to directing the pens of novelists from all over the Arab world to convey the suffering of the Palestinian people, who have strived to prove their identity amidst the repeated conflicts and crises that have torn their entity and unity, and controlled their geographical area. This has made the question of identity emerge as a central issue that has profoundly affected literary work, especially the Palestinian one. We find them presenting, through their pens, the journey of searching for identity and fragmentation. Therefore, in this paper, we will try to explore the identity fragmentation and conflict found in the novel "A Mask the Color of the Sky" by the Palestinian prisoner Bassem al-Khandaqji. Thus, came the title as follows: "Fragmentation of the Self and the Search for Identity in the Novel 'A Mask the Color of the Sky.

Keywords: Homeland, Identity, Self, Fragmentation, Mask

1. مقدّمة: مع تطور فن الرواية ومواكبته لصراعات العصر، أصبحت الذات عنصرا فاعلا فيها، فتحولت الرواية إلى وسيلة للتعبير عن مشاعر الكاتب وتأملاته وأفكاره الشخصية، وأصبح السرد فضاء يعكس الحضور الداخلي للمؤلف، من خلال توظيفه لذاته بطرق شتى، مما منح النص عمقا

آخر أكثر ذاتية، حيث استخدم الروائي الشخصيات والأحداث وحتى السرد كأدوات لاستكشاف موضوع الهوية والغوص فيه، منطلقا من جملة من التساؤلات الجوهرية حول الكينونة: ومن أنا؟ ومن أكون؟ وماذا أريد؟ وهذا ما لاحظناه عند الروائي الفلسطيني **باسم الخندقجي** في روايته **(قناع بلون السماء)**، حين وصف التصدع الذي آل إليه المجتمع الفلسطيني جراء الاحتلال الصهيوني الغاشم، ومدى أثره على الهوية والانتماء، وهو ما دفعنا – من خلال هذه الورقة البحثية – إلى الوقوف على أسباب تشظي الهوية في الرواية المعاصرة، من خلال تحليلنا لجملة من الصراعات الداخلية والخارجية الواردة في رواية **(قناع بلون السماء)**، ومحاولة الكشف عن العوامل السردية وربطها بالسياقات السياسية والتاريخية والاجتماعية، وقد انطلقنا من جملة من الإشكالات جمعناها في التساؤلات الآتية: كيف عَبّرت الرواية عن أزمات الذات؟ وما هو دور العوامل التاريخية والاجتماعية والسياسية في تشظي الهوية؟ وكيف تَجّلى تشظي الهوية في السرد الروائي؟.

2. الهوية واشكالية المصطلح: تعد مسألة الهوية من أكثر القضايا تعقيدا حيث يصعب حصر مفهوم شامل ومحدد لها، فهي " غير قابلة للتعريف، إذ أن كلَّ تعريف لها بحد ذاته يُشكل هوية"[1]، وهذا راجع إلى التشعبات والتفرعات البحثية التي تصب فيها، كونها مجالا خصبا للدراسة يمس كثيرا من الميادين كالفلسفة والسياسة والتاريخ والأدب وغيرها، كما أنها أيضا متغيرة ومتحركة لا تتسم بالاستقرار، وهذا بفضل طبيعتها الزئبقية المتحولة جراء العوامل المؤثرة فيها مثل العوامل النفسية والاجتماعية، وهي "في أغلبها مفاهيم تنطلق من التجربة المعاشة، ومن نسق التصورات والأنماط السلوكية المتنوعة"[2]، فهي مجموع الأنماط والسلوكات المكتسبة من المجتمع، غير أنها "ليست موضوعا ثابتا أو حقيقة واقعية، بل هي إمكانية حركية تتفاعل مع الحرية"[3]، فالهوية تتغير بحسب الظروف وتخضع للتحولات المستمرة عبر الزمن، وتتشكل

وتتحقق من خلال الحرية، وهو ما يجعلها تتسم بالتعدد والتنوع، وهذا التنوع والتعدد هو ما يجعلها في حالة اصطدام دائم بين الأنا والآخر، وهذا راجع لامتلاكها خاصية سحرية تؤهلها للظهور في مختلف المقولات المعرفية، حيث تتسع بدرجة عالية من العمومية والتجريد، تفوق مختلف المفاهيم الأخرى المجانسة والمقابلة لها، كما تمتلك طاقة كشفية لفهم العالم بما يشمل من كينونات الأنا والآخر[4]، فالهوية هي تحديد لماهية الذات وكينونتها، وذلك كونها تعني من نكون، فهي ليست مجرد تعريف ذاتي بل تشمل الانتماء إلى مكان أو ثقافة، فهي تتشكل من تجاربنا، وعلاقاتنا مع الآخرين، وكذلك من المكان الذي ننتمي إليه، لأن الانتماء هو العنصر الأساس في فهم من نحن[5].

وإذا أردنا الحديث عن الهوية العربية عند الفرد العربي، فإننا سنتحدث بالضرورة عن قضية متعددة الأبعاد، كالبعد القومي والديني وحتى السياسي والاجتماعي، فالهوية العربية تتأرجح بين التأثر والمقاومة والرفض، وهو ما جعل الفرد العربي يعاني من تشظي الهوية "نتيجة ما يعانيه من شعور حاد بفقدان الهوية، بعد تضليله عمدا في أغلب الأحيان عن خصوصيته وعن الواقع الذي تعامل معه"[6]، لأن الهوية هي "الحقيقة المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره، كما تعبر عن خاصية المطابقة، أي مطابقة الشيء لنفسه أو لمثله"[7]، فالهوية رغم صعوبة تحديد مفهوم خاص بها؛ كما أشرنا سابقا؛ إلا أنه يمكن القول إنها مزيج من السمات التي يتميز بها كل فرد عن غيره، أو هي ما يكون عند الأنا مقابل الآخر، وتكون الهوية غالبا إما طاغية ومسيطرة بقوة المجتمع الذي ينتمي إليها، وقد تكون ضعيفة مسلوبة منشطرة، خاصة في الدول المستعمرة مثل فلسطين، وهو ما سنحاول البحث عنه في رواية **(قناع بلون السماء)** والكشف عن مدى تشظي الهوية الضعيفة مقابل سيطرة الآخر القوي، وما الأسباب والعوامل التي أدت إلى ذلك؟ وكيف يمكن الخلاص منها؟.

3. النشأة الأولى وسؤال الهوية: تعد مشكلة الهوية من أهم المسائل التي اهتم بها الخطاب الأدبي عموما والروائي على وجه الخصوص، وهذا راجع إلى كونها تعبيرا عن الوجود، وتحديدا للثوابت الجوهرية للذات الإنسانية وانتماءاتها لأن الهوية عبارة عن تلك المساحة الكبرى من كينونة الانسان، والحيز الواسع الذي يعبر فيه عن ذاته البشرية بكل مكوناتها، لذا نجد أن سؤال الهوية يظهر مع الفرد منذ البدايات الأولى في مجتمعه، ليتعرف على حدود هويته، وهو ما لمسناه مع البطل **نور الشهدي** ابن المخيمات في رام الله الفلسطينية، حين عاش حالة من الانفصال مع ذاته وهويته منذ نعومة أظافره، وفترات طفولته الأولى، خاصة وأنه عانى اليتم بعد فقدان أمه حين ولدته، ثم ساعد في هذا الضياع صمت أبيه بعدما خرج من السجن، حين تحول من مناضل من أجل القضية الفلسطينية إلى بائع القهوة والشاي في عربة، وهذا بعد أن تاجر أصدقاؤه بالقضية، حيث تقلدوا الأوسمة وعقدوا المفاوضات الوهمية مع المحتل فشعر بموته قبل الموت، وهنا تظهر البوادر الأولى لسؤال الهوية، فالبطل **نور** يصف حاله على أنه ولد من رحم المعاناة فهو "ولد من الزقاق، من رحم خفية فيه، لا يدركها سوى المنكوب منذ الصرخة الأولى، رحم يولد منها ليتقن اليتم على أصوله، فهو المفجوع والمكلوم والكاتم، والمكتوم والتائه والمغترب الذي ولد جاهزا مجهزا بكل عتاد البؤس المتاح وغير المتاح، في هذه الأزقة"[8].

إن المتمعن لهذا الميلاد، يجده منبثقا من المخيمات بأزقتها الضيقة وبيوتها المكتظة التي لا ينبعث منها إلا الصراخ والأنين، فيكشف لنا عن ملامح هوية مخنوقة، ماتت أثناء الميلاد على يد الجلاد الصهيوني الذي وأدها دون رحمة فبقي **نور** شخصا تائها، بلا روح بلا هوية، يرى نفسه "المسخ الذي ولد من رحم النكبة والأزقة والحيرة والغربة، والصمت، صمت أبي موت أمي ومطاردتي في أزقة المخيم...ولدت من رحم التهميش والتصنيف"[9]، بقي **نور الشهدي** يدور في دوامة من الأسئلة البسيطة والمعجزة في الوقت نفسه، من أنا؟ من

أبي؟ ماهي الأزقة؟ أين هويتي؟ أين ظلي؟ أين مرآتي؟ ماذا أفعل هنا؟[10]، أسئلة علها توضح له مدى انتمائه للدائرة المحددة للهوية، ومدى احتوائها له أو لبعده عنها، وعن الآخر القابع خارج الدائرة.

فمن هنا بدأت ملامح الشرخ في الهوية لدى **نور** منذ الولادة، فهذا التشتت في شخصية البطل المحبطة أكسبها عدم الشعور بالأمان والانتماء. وليس الميلاد والظروف المصاحبة له فقط من فعلت فعلتها في تصدع هوية البطل **نور الشهدي**، بل هناك عوامل خارجية أيضا ساعدت على ذلك، بل كان لها النصيب الأكبر في تعميق الشرخ الهوياتي، وكان على رأسها الملامح، تلك الملامح التي ورثها عن والدته، حين اكتشف **نور** ملامحه، وبات يدرك مزايا تلك الكنية التي كان يلاحقه بها أولاد المخيم، "السكناجي"[11]، فالملامح الخارجية ليست مجرد سيمات يتميز بها كل فرد عن الآخر، أو يختلف بها كل عرق عن آخر، بل تعد أيضا وسيلة لتحقيق أغراض معينة أو خداع شخص ما، وهو ما حدث فعلا في سردية الرواية، فقد استخدمت لتشكيل هوية جديدة، مما سمح للبطل بالاندماج ظاهريا، وسهلت له مهمة العبور إلى عمق الآخر المحاط بحواجز تكبل حرية الفلسطيني، لكن هذا الاندماج كلّفه غاليا، وهو فقد وطمس هويته الأصلية الداخلية لحساب هوية الآخر، التي أغوته، وسعى للاتحاد بها وعدم التنازل عنها، لأنه يشعر "بتشبثها بي...بشعري الطويل المجعد، وعيني الزرقاوين ولغتي العبرية ذات اللكنة الأشكنازية"[12]، إن شعور **نور** بالتناقض هو أساس تشظي الذات وانشطارها، وهذا راجع إلى خلفيات اكتسبها البطل منذ الصغر، تظافرت فيها عدة عوامل صنعت منه إنسانا ممزق الهوية، ضائعا مغتربا اغترابا تاما في وطنه، حيث قرر الرحيل عن واقعه الأول "ليرتدي قناعا أعده من ملامحه التي عدت ملامح الآخر"[13].

ظهر الانشطار الهوياتي عند البطل جليا عندما أصبح يدرك العالم الخارجي، وبدأ بمقارنة بين الآخر الذي له كل شيء، وبين الأنا المضطهد

الذي سلب منه كل شيء، منذ الوهلة الأولى فوجد نفسه ضحية كل الأطراف من يُتم وفقر وتهميش وقهر، وجد نفسه محاطا بالأقنعة من كل جانب، قناع عائلته، وقناع في رام الله –كما وصف السارد على لسان البطل **نور**– وقناع في الأوضاع السياسية، كل هذه الأحداث جعلته يفقد الثقة في نفسه، ودفعته إلى البحث عن واقع يجعل منه إنسانا، فقرر تقليد الآخر في أدق التفاصيل فيذكر في رسالة صوتية يسجلها بين الحينة والأخرى إلى صديقه **مراد** القابع في غياهب السجون الإسرائيلية، فيقول: "كنت أدخل المتجر لأراقب الآخر وهو يختار ملابسه لكي أقتني مثلها، إنها التفاصيل يا صديقي أليس كذلك؟"[14]، إن هذا التصريح المباشر من البطل **نور** حول ما يعانيه من نقص تجاه هويته، ما هو إلا دليل صارخ على الشرخ الهوياتي، لأنه أراد أن يتخلص من ذاته ويتقمص الآخر بكل تفاصيله، بشكله بلباسه، حاجة منه أن يصل إلى شيء يروي ظمأ نفسه المتعطشة إلى هوية غير هويته.

3. تشظي الهوية ورفض الانتماء: إن التناقض المستمر للهوية جعلها كائنا متغيرا، فالهوية لا يمكن " أن توجد بمفردها، من دون ثلة من النقائض والنوافي والاضداد"[15]، فالهوية إذن لا تعرف بذاتها وإنما بعلاقاتها بالآخر، الذي يختلف عنها، عبر ثنائيات الأنا والآخر، مستمدة سلطتها وغلَبتها من سلطة الآخر المهيمنة، ومحاولة هروب الأنا من ذاتها إلى تقليد الآخر والسير وفق نهجه، وهو ما لمسناه جليا مع بطل الرواية **نور الشهدي**، حين أراد أن يصبح الآخر اليهودي **أور شابيرا** من خلال ارتدائه العديد من الأقنعة التي حجبت هويته لتظهر هوية الآخر جلية بوضوح، طمس الباطن ليتجلى الظاهر، على حد قول السارد على لسان البطل، "عتبة تفصل بين عالمين مختلفين.. عالم المركز وعالم الهامش.. عالم **أور شابيرا** وعالم **نور الشهدي**؟"[16].

إذا نظرنا بعمق، نجد أن البطل يعبر عن شعوره بالاغتراب والانقسام بين عالمين متناقضين، عالم المركز الذي يمثل السلطة والقوة والسيطرة والهيمنة

هو عالم **أور شابيرا**، الذي يحمل الهوية الزرقاء، هوية تمنحه التحرر واللاقيود وعالم الهامش المستضعف المكبل، والذي يمثله **نور الشهدي** وأبناء فلسطين. كما يتضح لنا أيضا أن ظهور فكرة العتبة والحاجز، التي تفصل بين هذين العالمين، فتوحي بأن **نور** عالق بينهما، بفكره وبذاته، فهو غير قادر على العبور إلى المركز، لأنه ينبذ الهامش، ومن هنا تتضح أزمة الهوية عنده هويته التي رفضها ورفض من خلالها الهامش ورفض الانتماء إليه، ويتجدد هذا الرفض في الكثير من فصول الرواية، فيتجلى مرة أخرى عندما يقف أمام جدلية الانتماء، أين ينتمي؟ هل هو جزء من عالم **أور شابيرا** أو أنه مستقل عنه؟ وهل بمقدوره تجاوز هذه العتبة؟ أم هي مصير محتوم يكبله بقيود الانتماء؟، فنور هنا يعيش صراعا داخليا بين عالمه، عالم المخيمات بكل ما فيه من قبح، وبين رغبته الجامحة في تجاوز الهامش إلى المركز بما فيه من مزايا، ولتحقيق هذا الانتماء لابد له من قناع، قناع يداري هويته، هذه المرة ليس قناع الملامح الذي اعتاد عليه ولا قناع اللغة، بل قناع أكثر حصانة، إنه بطاقة الهوية البيضاء والزرقاء، هوية لرجل يهودي، عثر عليها في جيب معطف جلدي اشتراه من سوق الملابس المستعملة، فيغير صورة الشخص الحقيقي **أور شابيرا** بصورته هو **نور الشهدي**، وسردية نسيان الرجل اليهودي لهويته في جيب معطفه، تحيلنا إلى عدة تأويلات منها الحرية المطلقة التي يتمتع بها هؤلاء بحيث يتجولون دون قيد وبلا حاجة للهوية، لأنه يكفي أن تكون إسرائيليا حتى تكون حرا، غير أن الأعمق من ذلك هي أن الهوية وطن وبما أنه أهملها فهو ليس أهلا لها، فلو كانت هويته الحقيقية لما نسيها، بل هو مستعمر جاء لنهب شيء ليس من حقه، وحين نرجع **إلى نور** أثناء تحوله **لأور شابيرا**، فقد انتابه شعور غريب وذلك "ما إن تفحص **نور** البطاقة حينذاك متمعنا بصورته الأشكنازية المتقنة، حتى أحس بإحساس غامض مؤلم، شعر أن شيئا يقضمه، فالقناع لم يعد بالملامح فحسب، بل امتد ليسري في هويته

ويمزجها بهوية أخرى"[17]، نور في هذه اللحظة بإحساسه المؤلم يُعبر عن تجربة العبور بين هويتين، الهوية الفلسطينية والهوية الإسرائيلية، حيث شعر بالانقسام وتشوه في ذاته، فهو ممزق في صراع داخلي يؤلمه، محاصر بين هويتين متناقضتين، لكنه رغم كل ذلك كان يرى نفسه أنه "لم يعد يقيم في الحافة، بل في أعماق المركز، مركز الآخر الذي خلقه من النكبة والأزقة"[18]، فقد انتصر على الآخر حين صار يقبع في مركزه في الدائرة الخاصة به، يعيش فيه، لكنه لا يعكس هويته الأصلية، بل يعيش فيه كفراغ، كغريب محاصر بين هويتين متناقضتين، هوية مهيمنة أرادت أن تطمس كل شيء أمامها من أجل أن تصبح هي الأصل.

وتزيد معاناة **نور** مع الانشطار الهوياتي حين يبوح لصديقه **مراد** متألما "بعثُ ظلي الحقيقي لهوية مزورة، فقعدت بلا ظل، كنت في ظل أبي بلا صوت، والأن أصبحت بلا ظل وبلا صوت"[19]، فهو يتحصر بعد أن كان يعيش في ظل أبيه رغم الصمت، وهي هويته الفلسطينية المتجذرة، لكنها مكبلة مقيدة لا صوت ولا حرية، وعندما أراد التغيير برفضه للانتماء لهذه الهوية، فَقَدَ نفسه وذاته، فأصبح بلا ظل، بلا هوية بلا جذور، فَقَدَ جوهره وفقد ظله فعصفت به رياح التيه بعد أن حاول الانتماء إلى واقع لم يكن بالأساس هو جزء منه، فصار **نور** منشرخ الهوية مغتربا يبحث عن إجابات لعدة أسئلة انتابته أثناء ارتدائه القناع الذي أراد أن يخبأ به تشوهه في محاولة تمويه، لكن الإشكال المطروح "هناك في القدس وتلّ أبيب هل كان **نور** أم كان آخره كان **أور**؟"[20]، هل فعلا استطاع أن ينجو من الزقاق ؟ من ماضيه؟ من الصمت؟

يعيش **نور** صراعا عميقا وهو يحاول تحديد هويته وتمييز ذاته الحقيقية عن الهويات المزيفة التي تحاول السيطرة عليه وتجعله يتخبط في اغترابه، فحاله هذه هي حال القدس في تاريخها وأصلها، فهي بلد الديانات بلد العمق بلد فلسطين الأولى، لكن في ظاهرها بلد مستعمر مسلوب الهوية والثقافة، وما زاد

من تعميق الشرخ عندما طلب من **الشيخ مرسي** أن يذهب معه ليصلي في القدس، ففاجأه بقوله: "وكيف ستدخل الحرم؟ وبأي هيئة وهوية؟ **نور** أم **أور**؟ فنور عندما سمع هذه الأسئلة الصادمة من **الشيخ**، انشطر في مشهد درامي يصفه السارد في قوله: ثم مضى مخلفا وراءه شخصين وارتعاشة لظل واحد... فمن الذي يرتعش الآن ظل **نور** أم ظل **أور**؟، فالقدس بالنسبة إليه ليست مجرد حيز جغرافي، بل هي كيان مشحون بالرمزية والتاريخ، فهو عندما يدخل القدس ظاهريا **أور شابيرا**، وقلبا **نور الشهدي**، فهو حاضر بجسده غائب بروحه وبهويته وبذاته، فهو كلما دخلها بهوية غير هويته الأصلية عدّها خيانة للتاريخ وماضيه، فهو يرى نفسه كيانين منفصلين لشخصين، لكن الارتعاشة كانت من نصيب ظل واحد، فالظل هوية، والهوية تاريخ، والتاريخ هو القدس وفلسطين التي ولد منها **نور** ومنحته هويتها.

ويتكرر الشرخ أيضا بين الهويتين داخل البطل، من خلال سؤال مباغت من **أور شابيرا**، حين سأله قائلا: قُلْ لي ما اسمك؟ من أنت؟ ثم يجيبه **نور** بتحسر شديد، وهل مثلك يكترث لأسماء الآخرين من أمثالي؟ أنا اسمي محدد مسبقا من قبلكم[21]، **فأور شابيرا** يسأل باستعلاء، ليجيبه نور بمصير محتوم، أنتم من تحددون الأسماء والمصير، إن سؤال **أور شابيرا** حول اسمه ليس بريئا، بل هو ناتج عن صراع عميق بين الهويتين، وما هي السلطة المُخَوَّلَة لها تحديدها وذلك من خلال تحديد الأسماء، فالسؤال جاء من ذات متعالية مسيطرة تتدخل في وضع حدود لهوية الفلسطينيين، من خلال تصنيفهم بمسميات من إنشائها وهذا ما كشفه رد **نور** الذي يتخلله شعور بالقهر والاغتراب، إذ يدرك جيدا أنه مسلوب الإرادة حتى بات العدو هو من يفرض عليه ملامح هويته، فهو فاقد كل شيء، حتى حقه في تحديد اسمه، وفي هذا السياق فإن السؤال عن الاسم هو السؤال عن الوجود وعن الذات والهوية، لقد عانى **نور** إثر ارتدائه للأقنعة

الثلاثة الملامح واللغة والهوية الزرقاء، من تجاذب وصراع داخلي مرير، بين طرفين في شخصية واحدة ما جعله يعيش حالة من التشرذم والضياع الداخلي.

5. الثنائيات المتصارعة في الرواية: تُعَد الثنائيات الضدية محورًا أساسيًا في دراسة قاعدة الرواية، حيث تشترك في استنباط بعض أنساق الخطاب الموجودة فيها، مما يجعلها أداة فعالة لفهم البنية السردية للنص. وتستند هذه المقاربة إلى الفكر البنيوي في التداخلات المعقدة، إلا في الوقت الحاضر تنأى عن الطروحات ما بعد البنيوية، خاصة التفكيكية، التي تطرح رؤى مغايره حول علاقة الأضداد مثل الحضور والغياب، الظاهر والمضمر، الدال والمدلول[22] وتعرف على أنها " مجموعة من الثنائيات المتشابكة والمتقابلة، تنعكس على شبكة العلاقات، الخالصة"[23]، فالثنائية هي الصراع الموجود من خلال التقابل بين معنى وآخر، بحيث ينتج على هذا التقابل مجموعة من الثنائيات الضدية التي تُقَوّي من السرد الروائي، وهي ما عمد إليها الروائي **باسم الخندقجي** حيث تعكس الثنائيات في رواية **(قناع بلون السماء)** بوضوحٍ أزمة الهوية الفلسطينية في سياق الاحتلال والاغتراب القصري، حيث ركز عليها السرد الروائي في محاولة إظهار الصراع الموجود بين الجانب الفلسطيني والجانب الإسرائيلي، وقد صاغه في العديد من الثنائيات منها ثنائية الأرض الفلسطينية المتجذرة في أعماق الماضي والكيبوتس، والبنايات الحديثة التي شُيّدت على أنقاض القرى المهجّرة، في محاولة طمس الأثر الفلسطيني، وقد وظّفها في عدة مشاهد، منها محاولة **البطل نور** البحث عن أثار **مريم المجدلية** من خلال انخراطه في بعثة تنقيب عن الآثار من طرف الجانب الإسرائيلي، حيث لاحظ **نور** محاولة صارخة لطمس الهوية الفلسطينية من خلال طمر قرى بأكملها وحجبها كليا، فيخاطب **نور** فوجا من السياح الأجانب ويصحح المعلومات المغلوطة التي كان ينشرها الآخر فيقول: "فهنا سيداتي سادتي حيث تقفون الآن تقع أنقاض وأطلال القرية العربية الفلسطينية صرعة، التي نكبت وهجر

أهلها...ليشيد مكانها كيبوتس صرعة"[24]، إن المتمعن لهذا المشهد يدرك حقيقة الصراع حول الأرض التي تتنازعها هويتان، هوية متجذرة أصلية، وهوية سطحية مصطنعة، غير أن الأخيرة تسعى جاهدة إلى التموقع فوق نظيرتها في محاولة منها محوها من خلال ردمها ودفنها، وذلك باستبدال القرى بالمستوطنات كما عمدت أيضا إلى وضع النصب التذكارية "إنه الإصرار على استلاب التاريخ وتقييده بالسيطرة والعنف والتعسف"[25].

ومن الثنائيات الضدية أيضا والتي لعبت دورا رئيسا على مستوى الأحداث السردية نجد ثنائية **سماء وأيلا، فسماء إسماعيل** فتاة عربية من حيفاء، **وأيلا** فتاة يهودية مشرقية، فيصف **نور** المشهد "أي حظ سعيد هذا، عربية عن يسارك، ويهودية عن يمينك"[26]، لعل اختيار الأماكن لم يكن عشوائيا **فسماء** العربية تمثل الأصل بكل هوياته، تمثل العمق والجذر، لذا أعطاها مكانة القلب في الجهة اليسرى، فهي التي رفضت الذوبان في هوية الآخر اليهودي بالرغم من عيشها وسطهم وامتلاكها لبطاقة هوية زرقاء، إلا أنها مازالت تحافظ على ذاتها وعروبتها، وعلى حرف الحاء كما وضح **نور**، في حين **أيلا** الفتاة السمراء الجميلة المتوددة دائما **لأور شابيرا** تمثل الإغراء والاندماج في الآخر، ويوضح ذلك حين مكنت **نور** من دخول الكيبوتس أو المستوطنة من دون عوائق ولا حواجز تفتيش، فهو عندما يلتقي **سماء** يصبح في قرارة نفسه **نور** وعندما يلتقي **أيلا** فهو **أور**، فكل منهما تمثل هوية، إحداهما هوية مطمورة مضطهدة قابعة في الظلام غير أنها الأصل، والأخرى ظاهرة متجلية لها كل الحرية في التصرف والتجول والسيطرة. ودون شك أن هذه الثنائية قادت البطل إلى التمزق والانقسام بين ما هو محبب وبين ما هو مسيطر.

ولا تقف الثنائيات عند هذا الحد، فهناك أيضا ثنائية الوجه والقناع، فالوجه هو الحقيقة المطلقة، والقناع هو الزيف، وهذا هو التناقض والتمايز الذي أثر على شخصية البطل في العديد من المواقف، وتتجلى هذه الثنائية عندما أراد

البطل أن يتضامن مع أهالي **حي الشيخ جراح**، وباغته السؤال الهوياتي، كيف سأتضامن معهم؟ وبأي صفة؟ هل بالوجه الحقيقي أم بالقناع، بصفته عربيا فلسطينيا يساند أهله، غير أنه إن قبض عليه فسيتم اعتقاله والتنكيل به وتعذيبه وإن ساندهم بقناعه فسيجد ردا قاسيا من اليهود وسينعتونه بأنه يساري ومعادي للدولة وللديانة اليهودية، وسيجعل كل الأنظار تتجه نحوه، يهودي متضامن مع الفلسطينيين علنا، وهذا الموقف يجعل كل الحاضرين من صحافيين وشرطة ومستوطنين، كل دون استثناء، يسألون سؤالا واحدا: لكن قُلْ لنا مَنْ أنت بحق السماء؟[27]، فهذه الثنائية تبيين مدى الاختناق الذي يشعر به البطل، فقلبه مع أهله وبني جلدته وما يعانيه من انتهاكات واعتقالات وتجويع، وبين القناع الذي يفرض عليه أن يكون جلادا رغما عنه.

ويتجلى لنا بوضوح ثنائية الاسم: **نور وأور**، **فأور** بالعبرية تعني النور أيضا. فالاسمان يحملان الدلالة ذاتها **(النور)**، غير أن النورين يختلفان في سطوعهما، فنور فلسطين خافت ينبعث من تحت الحطام والردم، مغطى بقناع يخنق أنفاسه، لا يستطيع أن يتسوّق في القدس ولا يُصلّي فيها ولا يستنشق هواء حيفا ولا ينير طريق أهالي **الشيخ جراح**، فهو نور لا يقوى على السطوع لينير أزقة المخيمات التي لا تحوي سوى " الإسمنت والصدأ والرطوبة والطحالب والعَفن والخوف والملاحقة"[28]، فكيف للنور أن يسطع بعد كل هذا الطمس، وفي المقابل يتمتع نور العبرية **(أور)** بكل حرية، فله الحصانة والسلطة تلمع حيث شاء يمشي بلا قناع، فقناعه هويته الغالبة، وهو ما علّق عليه البطل **نور** حين دخل مكتبة المعهد التي طالما سمع عنها وكان يحلم دوما بزيارتها، خاصة جناح كتب التاريخ، التي يميل إليها، وما إن دخلها حتى استأذن منه العامل بأن عنده موعدا مهما، وأعطاه الإذن بالتجوّل والاطلاع على ما يشاء من الكتب، فتساءل **نور** في قرارة نفسه "لو أنني نور، فهل كان ليخلفني وحدي هنا دون مراقبة وحراسة؟"[29].

فها هو **نور** يَقِفُ حائرا بين اسمين يشتركان في المعنى، ويفترقان في الحقيقة، فهو في حالة وسوسة متبادلة بينهما، فسَطْوة **أور** دائما ما تُحَسّسه بضُعفه مقابل قيمة الآخر، فهذا الاسم يعد الورقة الرابحة وجواز عبور آمن وهو ما صرح به **أور** في أذن **نور** في حوار داخلي بينهما عندما قُبِل في البعثة الإسرائيلية للتنقيب عن الأثار فتحداه بنبرة مستعلية " لست أنت من أقنع (بريان) بضرورة قبولك بالبعثة الأثرية، بل أنا... أنا **أور شابيرا** ولستَ أَنْتَ يا... صحيح قُلْ لي ما اسمك؟"[30]، أراد أن يبرهن له أنه غير مرئيّ، غير موجود، وإن وُجد فهو بفضل **أور شابيرا** وهويته الزرقاء فقط التي جعلته يتحدث بالصوت الأقوى، نافيا وجوده متجاهلا اسمه، منطلقا من تهميشه عن طريق طرح سؤاله المستفز كالعادة، **ما اسمك؟** غير أن هذه الممارسات هي التي جعلت **نور** يبحث عن ذاته من جديد، في وجه القناع الذي فرض عليه.

هناك أيضا ثنائية القلادة، وبدأت حين التقى **نور** بالفتاة الإسرائيلية **أيلا** ذات صباح في موقع تنقيب، ولمح في صدرها قلادة من فضة على شكل خريطة فلسطين، كانت تشبه القلادة التي أهداها إياه صديقه **مراد**، فيخاطب **نور** صديقه في سره قائلا: "تخيل يا **مراد** إنها ذات الخريطة التي أرسلتَها لي من سجنك، وقد نحتّها من حجر من حجارة الدومينو المسلّية، كِدت أن أنتزعها من عنقها صارخا، هذه لي، هذه البلاد لي، كيف ترتدين ما ليس لك؟"[31].

تحمل هذه الثنائية بين القلادة المصنوعة من الفضة والقلادة المصنوعة من حجر الدومينو، وبين مالكي هذه القلائد، رمزية عميقة، تصور الصراع الهوياتي والتاريخي بين فلسطين وإسرائيل، وأحقية كل طرف في هذه الخريطة، فقلادة **نور**، تمثل المقاومة والصمود، وذلك أنها منحوتة في السجن بإتقان وتفنن من حجارة الدومينو، أي أنها نابعة من الذات من العمق لتعبر عن الانتماء، وفي المقابل فإن القلادة التي ترتديها **أيلا** لخريطة فلسطين تمثل الاستيلاء على الأرض والحرية، فالمفارقة بين ثنائية القلادة تبرز بين من يرتدي خريطة

فلسطين كزينة ظاهرة للعيان، ومن يحفرها بأظافره على حجر أصم قاس في سجن مظلم، وقد اختار أن تكون من لعبة الدومينو ليعبر عن قدرة الفرد الفلسطيني على خلق هويته حتى وإن كان أسيرا ، وذلك عن طريق تحويل اللعبة إلى أداة للمقاومة وإثبات الوجود، وبمقارنة بسيطة من **نور** استطاع أن يحدد الأحقية له في ملكية فلسطين من خلال صراخه، الناتج عن مشاعر الغضب والاغتراب لاستعادة وطنه وهويته وتاريخه ورموزه.

لا شك أن هذه الثنائيات ساهمت بشكل كبير في إبراز التناقضات التي كانت مضمرة في الرواية، حيث كشفت الصراع الهوياتي الفلسطيني بين الماضي والحاضر، وبين السجن والحرية، وبين السالب والمسلوب، ليشكل لنا بعدا رمزيا استطاع الروائي من خلاله تصوير الواقع الفلسطيني بدقة.

6. وعي الذات وتفكك مركزية الآخر: ويمثل لحظة الإدراك التي تنتاب الأنا نتيجة مواقف يمر بها **نور** تجعله يعيد النظر في علاقاته مع الآخر وذلك عن طريق وعيه وتحرره من الهيمنة المفروضة عليه التي جعلته يفقد هويته لصالح مركزية الآخر، وهذا راجع إلى كون معرفة الذات مرتبطة بما يفرضها الآخرمن تصورات وصور نمطية، وهو ما يدفع الذات إلى طريقين، إما إعادة تشكيل هذه التصورات والتماهي معها والسير وِفْقَها، وإما مقاومتها ورفضها والتصدي لها، وفي هذا التجاذب والتصادم يخلق فضاء هجينا للهوية تمتزج فيه عناصر مختلفة ناتجة عن الطبيعة المتحولة للهوية، التي لا تعد كيانا ثابتا، بل تتشكل في فضاء التفاعل بين الذات والآخر[32]، ومنه يمكن للذات من معرفة حدودها وموقعها مقارنة بالآخر، وهو ما حدث مع **نور** فبعد ما عايشه من بداية ظهور التشظي الهوياتي، وظهور أسئلة تحاصره عن ميلاده وظروفه ومكانته بالنسبة إلى الآخر، ثم مرحلة الاندماج والذَوَبان في الآخر من خلال تقليده ودخوله عالمه وتقمص شخصيته، لكن هذا التقمص جعله يرى معالم ذاته واضحة، مما جعله يعيد النظر في رسم حدود الدائرة

الخاصة بالمركز والهامش، والحدود الفاصلة بين الأنا والأخر، وما ساعده على ذلك ظهور العديد من الأسباب، لعل أهمها **سماء** الفتاة العربية ومقاومتها غطرسة الفتاة اليهودية **أيلا**، هنا بدأ **نور** يعيد حساباته، فسؤال **سماء لنور** من أنت؟ وماذا تريد مني؟ أَرَّقَ **نور** كثيرا، وكان نقطة تحول في بحثه عن ذاته حيث صرح قائلا: حائر أنا الآن، كيف سألتقيها غدا؟ كيف سأراها؟ بأي لغة سألقي عليها تحية الصباح؟ كل هذه الأسئلة كانت نتيجة لحظة إدراك حاسمة لدى **نور** حين واجَهَ أول مرة الاصطدام الحقيقي بين الهويتين، فوجد نفسه متنكرا بين هوية زائفة فرضتها عليه الظروف، بينما تقف **سماء** شامخة بثبات بهويتها العربية الفلسطينية، وهذا الموقف صار بدايات تفكيك مركزية الآخر في وعي **نور**، حيث أدرك أن هويته ليست مجرد قناع محصن يرتديها متى شاء بل هي كيان يتطلب الصمود ومواجهة حقيقته مع الذات ومع الآخر.

بعد إدراك **نور** أنه أخطأ، وتماهى مع الآخر وذاب في هويته، خاصة عندما أدرك أن الهوية شيء لا يتاجَر به، أحس بهوة عميقة بينه وبين **سماء**، التي لم تَبِعْ وطنها وقضيتها، فصرح قائلا: "بعيدة هي **سماء** عن **نور**، الذي بلغ الدَّرَكَ الأسفل من حفرة الهوية، هوية الآخر التي يحاول الآن عبر اعترافه الأخير أمام **سماء**، انتزاع نفسه منها"[33]، إن ما حصل **لنور** من إدراكه لذاته، كان نتيجة اصطدامه **بسماء**، فالشخص " لا يدرك أهمية هويته إلا في لحظة مأزومة يواجه فيها المختلف، عندئذ يرتد إلى مُكَوِّناته الأصلية التي تمنحه الإحساس بوجوده"[34]، فلما قارن نفسه بها، تبيّن له أنه انغمس مع الآخر حتى وصل إلى القعر، هذا التباين بينهما كشف عن تمزق وتفكك مركزية الآخر بالنسبة إلى نور، بعد أن كان الآخر بالنسبة إليه النموذج الذي يجب تقليده والاندماج معه غير أنه أدرك أنه لا يعكس هويته الحقيقة من خلال المقارنة مع **سماء**، فسعى جاهدا لاستعادة ذاته، وذلك من خلال حواره مع **أور** عندما باح له بكل كبريائه المعتادة، " أنت أصبحت إنسانا خلال هذه المدة بفضلي أنا، بفضل هويتي"

غير أن **نور** لم يعد متمسكا به مثل الماضي، فقد فاجأه هو أيضا بسؤال: فإذا نزعت قناعك الآن، أفلا أصير إنسانا؟ هنا يظهر **نور** وهو يسعى إلى استعادة ذاته الحقيقية بعيدا عن القناع الذي كان يرى فيه الخلاص، وذلك من خلال وَعْيِهِ المتزايد الذي قاده إلى تحرير نفسه من تلك الهوية الزائفة، فهي الجدار الذي كان يحجب عنه انتماءه، ليحدد مساره في نهاية المطاف من خلال كسره للمرآة التي كانت الظل الذي تُظهر الآخر وتحجب الحقيقة، " بعد أن حجب **أور** الظاهر وتجلى **نور** الباطن"[35].

وهكذا تجلت الحقيقة وتفككت مركزية الآخر، وذلك حين حدد السارد مسار أحداث الرواية، من خلال النهاية التي تَمَكَّنَ فيها البطل من استرجاع هويته الأصلية وذاته الفلسطينية العربية، وكانت عندما نزع الأقنعة التي كانت تحجب روحه، بدأها **بنجمة داود** التي كان يضعها قلادة على صدره فألقاها بعيدا، ثم استخرج بطاقة هوية **أور شابيرا** الإسرائيلية، ومزقها بعنف أمام ناظري **سماء** وأعاد برمجة هاتفه إلى اللغة العربية، ثم همس بكل ما أوتي من لغته العربية المستعادة، مخاطبا سماء: أنت هويتي ومآلي[36]، وبهذا أصبح إعلان **نور** عن هويته الأصلية خلاصا له من التشظي والصراع الداخلي، الذي كان يعاني منه طيلة أحداث الرواية، حيث يقف الآن ثابتا لا يحتاج إلى قناع الآخر، بل تحرر حين استعاد هويته باستعادة عربيته التي كاد أن يفقدها بسبب تأثير الآخر عليه.

7. خاتمة: وأخيرا نخلص إلى جملة من النتائج التي نجملها فيما يلي:

– تبين رواية **قناع بلون السماء** الواقع المتأزم الذي يعاني منه الفرد الفلسطيني، في ظل التهميش والقمع والقهر، ومحاولة طمسه من طرف الآخر الصهيوني، مما أدى إلى أزمة الذات مع ذاتها أولا، ثم أزمة الذات مع الآخر في محاولة منها توضيح الحدود الفاصلة بين كل منهما، وهو ما أدى إلى بروز

مشكل الانشطار والتشظي الهوياتي، الذي طغى على أغلب المواقف السردية في الرواية.

– مسألة الهوية التي تتضمنها الرواية تكشف لنا مدى عمق التأثر بين الذات واتصالها بالآخر، وهو ما يؤدي إلى الانشطار بين الانتماء والانفصال ثم البحث عن الهوية، وهو ما جسدته الشخوص الروائية من خلال حواراتها؛

– تطرح هذه الرواية مشكل تصدع الهوية والتماهي مع الآخر، لكن البطل في الأخير استطاع استعادة ذاته في خِضَمِّ المآسي التي لاقاها على يد الجلاد الآخر.

8– قائمة المصادر والمراجع:

- باسم الخندقجي، قناع بلون السماء، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط1 2023م.

1. إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، دار الآداب للنشر والتوزيع، لبنان ط4، 2014م.
2. حامد أحمد محمد، حكاية العربي الأخير "لواسيني الأعرج مقاربة في النص والخطاب
https://journals.ekb.eg/article_90173_84fc257977a05219f20571e32 2b31dd3.pdf، 10،02، 2025، 23:35.
3. حسام الدين على مجيد، انبعاث ظاهرة الهويات: قراءة في منظور المفكر تشارلز تايلور، موقع مؤمنون بلا حدود https://www.mominoun.com/articles، 10،02،2025، 22:26
4. حسين حنفي، الهوية والاختلاف، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1 2012م.
5. رابح عيسو، ثقافة المهاجر العربي بين الهوية الوطنية والاندماج، مجلة العلوم الاجتماعية، المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا، العدد 30، ديسمبر 2023م.
6. عبد المطلب محمد، البناء الأسلوبي في شعر الحداثة، منشورات عالم الكتب، اربد (د ط)، 2020م.
7. عبير بسيوني رضوان، أزمة الهوية والثورة على الدولة، دار السلام للطباعة والنشر القاهرة مصر، ط1، 2012م.
8. علي وطفة، استثنائية الهوية والانتماء، مجلة المستقبل العربي، العدد 282 2002م.
9. ماجدة حمود، إشكالية الأنا والأخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة الكويت 2012م.
10. محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، منشورات اتحاد كتاب العرب، ط1 دمشق،1997.12.11م.
11. ميكشيللي ألكس، الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم، دمشق، ط1 1993م.
12. هومي بابا، موقع الثقافة، تر: ثائر دين، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ط1 2004م.

8. هوامش:

[1] . رابح عيسو، ثقافة المهاجر العربي بين الهوية الوطنية والاندماج، مجلة العلوم الاجتماعية، المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا، العدد 30، ديسمبر، 2023، ص10.

[2] . ميكشيللي ألكس، الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم، دمشق، ط1، 1993 ص16.

[3] . حسين حنفي، الهوية والاختلاف، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2012 ص23.

[4] . ينظر: علي وطفة، استثنائية الهوية والانتماء، مجلة المستقبل العربي، العدد 282 2002، ص100.

[5] . حسام الدين على مجيد، انبعاث ظاهرة الهويات: قراءة في منظور المفكر تشارلز تايلور، موقع مؤمنون بلا حدود، https://www.mominoun.com/articles 10،02،2025،22:26

[6] . محمد راتب الحلاق، نحن والأخر، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق،1997 ص47.

[7] . عبير بسيوني رضوان، أزمة الهوية والثورة على الدولة، دار السلام للطباعة والنشر القاهرة مصر، ط1، 2012، ص25.

[8] . باسم الخندقجي، قناع بلون السماء، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط1، 2023م ص15.

[9] . المصدر نفسه، ص 229.

[10] . المصدر نفسه، ص76.

[11] . المصدر نفسه، ص 40.

[12] . المصدر نفسه، ص 70.

[13] . المصدر نفسه، ص 74.

[14] . المصدر نفسه، ص 50.

[15] . إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، دار الآداب للنشر والتوزيع، لبنان، ط4، 2014م ص119.

[16] . قناع بلون السماء، ص86.

[17] . المصدر نفسه، ص 61.

[18] . المصدر نفسه، ص63.

[19] . المصدر نفسه، ص70.

[20] . المصدر نفسه، ص 73.

[21] . المصدر نفسه، ص 111.

[22] . حامد أحمد محمد، حكاية العربي الأخير "لواسينا الأعرج مقاربة في النص والخطاب، https://journals.ekb.eg/article_90173_84fc257977a05219f20571e322b31dd3.pdf، 23:35،2025،02،10.

[23] . عبد المطلب محمد، البناء الأسلوبي في شعر الحداثة، منشورات عالم الكتب، اربد (د ط)، 2020، ص149.

[24] . قناع بلون السماء، ص 66.

[25] . المصدر نفسه، ص183.

[26] . المصدر نفسه، 161.

[27] . المصدر نفسه، 139.

[28] . المصدر نفسه، 73.

[29] . المصدر نفسه، ص 104.

[30] . المصدر نفسه، ص 112.

[31] . المصدر نفسه، 117.

[32] . ينظر: هومي بابا، موقع الثقافة، تر: ثائر دين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ط1، 2004م.

[33] . قناع بلون السماء، ص227.

[34] . ماجدة حمود، إشكالية الأنا والأخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت 2012م(د ط)، ص21.

[35] . قناع بلون السماء، ص235.

[36] . المصدر نفسه، ص 238